الحتمية التاريخية

إن قضية الحتمية في ميدان التاريخ هي من أهم القضايا التي تفرض نفسها على الكثير من الباحثين في فلسفة التاريخ، والسؤال الذي يفرض نفسه على فلاسفة التاريخ والمهتمين بهذا الفرع الهام من فروع الفلسفة هو ما معنى الحتمية في التاريخ؟ وهذا السؤال يقودنا إلى سؤال آخر وهو ما أنواع هذه الحتمية؟ إن دعاة الحتمية في التاريخ يبذلون كل جهد ممكن ويطلقون طاقاتهم في محاولة تفسير التاريخ على غرار العلوم الطبيعية، وهذا أمر لا يمكن الوثوق به في نظرنا على الإطلاق، لأن التاريخ نتاج أعمال الجنس البشري ومن ثم فلا يمكن التنبؤ بالفعل الإنساني. ودعاة الحتمية التاريخية يسعون للبحث عن إطارات أو سياقات منتظمة في مجرى التاريخ، ويخضعونها لمبدأ عام ينظمها ويفسرها، ومن ثم تنتظم بمقتضاه أحداث التاريخ كلها.

أولاً: إن دعاة الحتمية في التاريخ على اختلاف طوائفهم متفقون جميعاً على أن ترتيب الحوادث التاريخية يخضع لنظام ثابت، ولكنهم يختلفون بعد ذلك حول طبيعة هذا النظام وفي حين رأى ابن خلدون وفيكو وشبنجلر وتوينبي وبول كيندي أن التاريخ يتحرك وفق عملية دورية وفي حين رأى أوغسطين وبوسويه أن التاريخ يخضع لعناية إلهية فإن هيجل وماركس وفوكوياما وفريدمان يعتقدون أن التاريخ غائي. ودعاة الحتمية يشتركون فيما بينهم في إيمانهم بالدين،

ومن ثم اتسمت نظرياتهم بأنها دينية، فابن خلدون وأوغسطين وبوسويه آمنوا بوجود عناية إلهية تحكم حركة التاريخ البشري وتتحكم في قوانينه، فقد تكلم ابن خلدون عن قوانين حتمية صارمة، واتسم التاريخ عند أوغسطين بالحتمية الدينية والتغير وعدم التكرار، وقد تبعه في ذلك بوسويه.

واتسمت كذلك نظرية هيجل وتوينبي وفوكوياما وفريدمان أيضاً بأنها دينية، فأعلن هيجل أن الحرية والمساواة بمعناها الحقيقي لم تتحققا إلا في الأمة الألمانية بفضل المسيحية. ونظرية التحدي والاستجابة عند توينبي تعبر عن مسيحيته. ونظرية فريدمان هي أيضاً مستوحاة من قصص العهد القديم.

ثانياً: بمقتضى الحتمية كل الأمم تخضع لعملية منتظمة من الصعود والهبوط، فالعصبية عند ابن خلدون هي المحرك الأساسي للتاريخ، وعند جان جاك روسو توجد علاقة منتظمة بين تقدم العلوم والفنون وانهيار الأخلاق والعكس، وعلى أساس هذه العلاقة يتحرك التاريخ. وعند توينبي يتحرك التاريخ في عملية منتظمة من التحدي والاستجابة. وعند بول كيندي توجد علاقة منتظمة بين الاقتصاد والقوة العسكرية.

وبمقتضى الحتمية الغائية لابد أن ينتهي التاريخ إلى غاية محددة، فتاريخ العالم عند هيجل هو تاريخ روحي منظم

تسير أحداثه كلها بمقتضى منطق جدلي ثلاثي الحدود. وأن قوى النفس الثلاث عند أفلاطون في نظر فوكوياما هي نقطة الانطلاق في تفسير غائية التاريخ. وأن فريدمان هو أيضاً ارتد إلى الفكر القديم، حيث عاد إلى ثيوسيديس في نظريته عن الغرائز الطبيعية المرتبطة بظاهرة الحروب. وفي نظر فريدمان كما هو الحال عند فوكوياما أن الولايات المتحدة الأمريكية هي محور التاريخ ومركزه وغايته أيضاً.

ثالثاً: إن تاريخ فلسفة التاريخ وما يتضمنه من نظريات حتمية ولا حتمية ينطلق في أساسه من مقدمات لاهوتية، وأفكار فلسفية مسبقة، وأفكار سياسية واقتصادية، وكل هذه الاعتبارات لا تعبر في حقيقتها عن حركة التاريخ، فالتاريخ لا يعبر صراحة عن هذه الاعتبارات، فكل نظرية تحاول أن تفسر التاريخ استناداً إلى فكرة تؤمن بها وتعتقد بأن التاريخ يتحرك وفقاً لها. ويكشف لنا تاريخ هذه النظريات منذ أقدم عصورها عن ذلك ويمكن ملاحظة هذا على النحو الآتي:

أ ـ اعتقد اليونانيون القدماء أن أحداث التاريخ تسير وفق عملية دورية منتظمة لا تتوقف على الإطلاق. وفي العالم الإسلامي المسيحي انطلق الفكر التاريخي يفسر حركة التاريخ وفق العناية الإلهية وهذا ما أقره ابن خلدون وأوغسطين وبوسويه، وتبعاً لهؤلاء توجد عناية إلهية تتحكم في القوانين التي تخضع لها الظواهر المختلفة، فوجدها ابن خلدون في الانتقال المستمر من البداوة إلى التحضر وانتهاءً بالهرم بفعل عاملين متحدين هما الدين والعصبية في إطار

عملية دورية تنتهي باليوم الآخر. ووجدها أوغسطين وبوسويه في أحداث فردية لا تتكرر وتنتهي أيضاً باليوم الآخر.

ب - وانتهت نظرية روسو في التاريخ إلى فكرة محورية يدور حولها التاريخ وهي التراجع أو الارتداد أو ما يمكن أن نطلق عليه أيضاً النكوص، فالفكرة الأساسية التي تناولها روسو واهتم بها اهتماماً شديداً هي العودة إلى حالة الطبيعة، إنها الفكرة التي أسس عليها قانون التاريخ.

إن كل الحضارات التي وجدها روسو في مجرى تاريخ العالم وخضعت في نظره لظروف مماثلة لا تمثل دليلاً قوياً أو برهاناً قاطعاً على وجود علاقة منتظمة بين فساد الأخلاق أو رفعتها وبين تقدم العلوم والفنون أو انحلالها. والحق أنه من غير المقبول محاولة تفسير التاريخ وفقاً لقانون عام يتحكم فيه وفي حركته. إن الافتراضات التي تضمنتها نظرية روسو ليس لها ما يبررها تاريخياً. فروسو لم يزد عن كونه يوتوبياً عاطفياً.

وفلسفة التاريخ في القرن التاسع عشر وهي الرومانتيكية والنزعة التاريخية قد انساقتا وراء نظرية روسو فطالبت الرومانتيكية بالعودة إلى الماضي والتعاطف معه، فقد ألقت الرومانتيكية الضوء على جوانب لا عقلية في التاريخ متأثرة بروسو، وطالبت بالعودة إلى الماضي، ومن ثم اختلفت نظرتها إلى التاريخ عن نظرة فلسفات عصر

التنوير. أما النزعة التاريخية فإنها تقوم على التعاطف مع الماضي كما هو الحال عند الرومانتيكيين، لكن هردر يهاجم الرومانتكية في مبالغتها في تقدير أهمية العواطف، كما أنه يهاجم فلسفات عصر التنوير.

ج ـ ونظرية هيجل في التاريخ كغيرها تبدأ من مقدمات لاهوتية وفلسفية، فالجدل في التاريخ ليس إلا فكرة وهمية نسجها هيجل من وحي خياله، فإذا أمكن تطبيق الجدل على جانب من التاريخ فإنه قد لا يكون مطبقاً تطبيقاً كاملاً في جانب آخر. فلو كان الجدل دقيقاً ومكتملاً لاستوعب في جوفه جميع أمم الأرض دون استثناء، لكن الواقع في حالة هيجل غير ذلك. إن هيجل صمم الجدل وحدد حركته في التاريخ لكي يجد لنزعته جذوراً تاريخية.

أما البعد الديني عند هيجل في التاريخ فإنه يسير على غرار النظرية الأوغسطينية في مضمونها والفارق أنه عقلاني، ويشترك هيجل مع أوغسطين في البدء من عوامل لا شخصية تعلو على التاريخ وتسيطر عليه. والنقطة الثانية هي أن دولة بروسيا كما صورها هيجل هي ذاتها مدينة الله عند أوغسطين، فبدلاً من وجود مدينة سماوية تحقق السعادة للأخيار فإن دولة بروسيا هي مدينة البشر تتحقق فيها الحرية والمساواة بفضل المسيحية، فهيجل هو ذاته أوغسطين العقلاني في العصر الحديث. والنقطة الأخيرة أن الروح التي تسود تاريخ العالم وتسيطر عليه في نظر هيجل هي ذاتها روح قومية وهذا واضح من تأكيده أنها قد اختارت الأمة

الجرمانية وفضلتها على غيرها من الأمم، إنها فكرة شبيهة بفكرة الشعب المختار.

د ـ وتوينبي استند في دراسته للتاريخ إلى مقدمات دينية أيضاً، فنظرية التحدي والاستجابة وهي جوهر دراسة التاريخ عنده ليست إلا انعكاس لموقفه الديني. فنظرية التحدي التي تولد الحضارة بموجبها تتصل بنزعته الدينية. إذ التاريخ بما ينطوي عليه من تحديات وصعوبات وصراعات دامية قد أوحى لتوينبي بحقيقة دينية أن العالم ملئ بالشرور والآثام وكافة المعوقات وأن على الإنسان أن يتغلب عليها ويقيم الحضارة. ومن ثم فقد بدأ توينبي من مقدمات دينية. فإذا كان توينبي وهو أحد دعاة الحتمية الدورية في التاريخ قد انطلق من مقدمات دينية فإن كيندي وهو أيضاً أحد دعاة الحتمية الدورية في التاريخ قد انطلق من دراسته للتاريخ الحديث من مقدمات وأفكار مسبقة تتمثل أولاً في العامل الاقتصادي الاستراتيجي وثانياً في العوامل النسبية الجغرافية والمالية. وثالثاً في العوامل اللامادية كالثقافة والايدولوجيا والدين وغيرها.

هـ ـ وأخيراً فإن الفكر الغائي في ميدان التاريخ وبخاصة عند فوكوياما وفريدمان يتضمن هو الآخر أبعاد دينية وفلسفية، فقد انطلق فوكوياما من أفكار فلسفية تعود بنا إلى قوى النفس عند أفلاطون من جهة والمنهج الجدلي عند هيجل من جهة أخرى.

وفريدمان تتحكم في فكره أيضاً مجموعة من المؤثرات منها المؤثرات الدينية والفلسفية والثقافية والسياسية والاقتصادية، ففي ميدان الفلسفة تأثر بثيوسيديس ومونيتسكيو وهيجل ونورمان انجل، وفي ميدان الدين تأثر باليهودية حتى بدا وكأنه رجل دين يهودي، وتأثر في ميدان السياسة والاقتصاد والثقافة بمعاصريه صامويل هنتنجتون وفرنسيس فوكوياما.

رابعاً: إن الحتمية بكافة صورها في ميدان التاريخ لا تعبر تماماً عن حقيقة الأحداث التاريخية، والوقائع لا يبرر على الإطلاق الزعم بوجود حتمية في التاريخ تهيمن عليه وتتحكم فيه. والحق أنه من غير المقبول محاولة تفسير التاريخ وفقاً لقانون عام يتحكم فيه وفي حركته.

والحتمية التي تتسم بها أحداث التاريخ تلغي تماماً دور الإنسان في التاريخ، ومن ثم لم يعد للفعل الإنساني أي قيمة، وذلك لأن كل شيء في العالم يخضع للقوانين أو لمخطط سام يفرض على الأحداث، أي لا يكون للفعل الإنساني أي معنى. وفي إطار هذه التفسيرات الحتمية للتاريخ لم يعد للفكر الحر دوراً يقوم به، بل يصبح الفكر تابعاً لهذه العمليات المنتظمة.

إن الاتجاه اللاحتمي هو الذي يؤكد على دور الإنسان في التاريخ، ويتخذ هذا الاتجاه أشكالاً عديدة منها التفسيرات الروحية والوجودية والأخلاقية وغيرها من تفسيرات تلغي الحتمية وتنحاز إلى الحرية. ولعل اشفيتسر أحد هؤلاء الذين

ردوا قيام وانهيار الحضارات إلى عامل الأخلاق، ومن ثم فاشفيتسر يعلي من قيمة الإنسان وقدره وقدرته أيضاً على تشكيل أحداث التاريخ. وأن الفكر وفقاً لهذا الموقف هو الذي يوجه التاريخ، إذ يرى أن التاريخ خاضع للإنسان وفيه يبدأ وينتهي.

خامساً: إن العوامل اللاشخصية لا تصنع تاريخاً ومن ثم لا وجود للحتمية التاريخية. والإنسان هو الذي يصنع التاريخ في الماضي والحاضر وما سيأتي في المستقبل. ومن ثم يتسم التاريخ باللاحتمية. والأمر الهام هو أن الإنسان أتى إلى الوجود وقد زود بخاصية تحقيق ذاته وارتقائها. وإذا نظرنا إلى الماضي فسنجد أن الإنسان هو الفاعل والصانع الحقيقي لتاريخه بفضل قدرته على تحسين ظروف حياته ومعيشته لكي يحقق ذاته في الحياة وأن يرتقي بها، هنا لا محل للقول بالحتمية أو الاعتقاد بوجود قوانين يخضع لها التاريخ كالقوانين التي تخضع لها الظواهر الطبيعية.

إن أفكار البناء لا الهدم وأفكار التقدم لا التراجع وأفكار التحضر لا التدهور ترتد في أصولها إلى الذكاء البشري لا إلى قوانين حتمية كعمليات صعود وهبوط أو عمليات ميلاد وفناء. فالأفكار الإنسانية تعمل عملها في التاريخ، والماضي لا يعلمنا إلا ما حدث ولا يشكل الحاضر أو ينبئنا بما سيأتي في المستقبل، وإنما قدرة الإنسان على تشكيل الحاضر وفق احتياجاته، ومن وراء ذلك قدرته على الارتقاء بفكره وسعيه نحو بلوغ الكمال.

إن الأفعال الإنسانية التي حفظها التاريخ وسجلتها وثائقه تعبر في جوهرها عن أفكار حرة تكمن خلفها. فالفكرة تؤدي إلى فكرة أخرى أكثر إبداعاً من سابقتها وإذا كانت أقل كفاءة منها فهي فكرة بالية فاسدة تعوق التقدم في الحضارة، وكل عملية تحضر توجد وراءها فكرة تدفعها، وربما تتشابه الأفعال البشرية في فترة زمنية أو في فترات متفرقة ولكن لا يعني ذلك وجود عمليات دورية منتظمة كما يزعم دعاة النظرية الدورية، والفعل البشري هو انعكاس للفكر، وقوة قدرة الإنسان على الارتقاء أو قابلية التحسن هي التي تعمل عملها في التاريخ من حيث أنها تثير الأفكار وتولد منها الأفعال.